احتلال بحر الغزال

٤

افراس النهر

وبقينا في التونج اياماً قلائل طلباً للراحة ثم قفلنا عائدين الى مشرع الريك ومعنا دواب النقل . وبعد ان قطعنا نحو ثلاثين ميلاً وصلنا الى نهر صغير يكاد ان يكون جافاً لكننا رأينا فيهِ بطيحة قد اجتمع فيها عدد كبير من افراس النهر فوقفنا نتفرج عليها وهي تغطس في الماء ثم تعود الى سطحهِ وترفع رؤوسها لاستنشاق الهواء . وكانت الاناث حاملة صغارها على ظهورها ومنظرها من اجمل المناظر التي رأيناها في تلك البلاد . ثم وقفنا على جرف رأينا تحتهُ فرساً كبيراً تدلُّ هيئتهُ على انهُ ذكر ولم يكن بيننا وبينهُ اكثر من خمسة عشر متراً فطلب منا الاهالي ان نقتلهُ فقتلناهُ وتركناهُ في الماء فنزلوا بعد انصرافنا وجرُّوهُ الى البرّ واخذوا لحمهُ

وافراس النهر كثيرة جداً في تلك البلاد وقد كانت كثيرة في مصر لكنها انقرضت منها منذ ثلاث مئة سنة قتل آخر واحد في فرع دمياط سنة ١٦٠٠ ويندر ان يرى واحد منها الآن شمالي الخرطوم

ويظن بعض علماء التوراة ان فرس النهر هو البهيموت الذي ورد ذكرهُ في سفر ايوب قال « انظر الى بهيموت الذي صنعتهُ معك انهُ يأكل الخضر مثل البقر . قوتهُ في متنيهِ وشدَّتهُ في عضل بطنهِ . يشول بذنب كالارز واعصاب فخذيهِ محبوكة . عظامهُ قصب من نحاس وعضاريفهُ حديد مطرَّق . هو اول طُرُق الله في الخلق وصانعهُ هو يُعمل سيفهُ . فالجبال تخرج لهُ الرتعة وحولهُ تلعب جميع وحوش الصحراء . يربض تحت السدر وفي خمر (اي ستر) القصب في المستنقع . يغيّم عليهِ السدر بظلهِ ويكتنفهُ صفصاف الوادي . ان طغى عليهِ النهر لم يُجفل . هو مطمئنٌّ ولو اندفق الاردنُّ في فيهِ » (ايوب ٤٠ : ١٠ — ١٨) . فهذا الوصف ينطبق تمام الانطباق على فرس النهر الذي لا يزال حتى الآن يربض تحت السدر وراء القصب في مستنقعات اواسط افريقية ولا يستبعد انهُ كان موجوداً في الاردن حيث يكثر السدر والقصب او في بحيرة الحولة كما اشار الى ذلك الاب لامنس اليسوعي في كتابهِ « تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار » . اما

وصف هذا الحيوان بكثرة اكل العشب فلا يعرف مقداره من الضخامة الا اهالي السودان فانهُ اذا خرج ليلاً على زرعهم اتلف الزرع في فدّان من الارض او اكثر من ذلك وقد قيل لي انهُ يأكل في ليلة واحدة زراعة ربع فدّان من الذرة

واهالي السودان يأكلون لحمهُ فاذا ظفروا بواحد منهُ وقتلوهُ ربطوهُ بحبل وجرّوهُ الى ضفة النهر ثم قطعوا لحمهُ قدداً وجففوهُ في الشمس او اضرموا النار وغرزوا خشبات حولها ونشروا

افراس النهر

القدد عليها ودخّنوها. اما الجلد فثخين جداً يقدّونهُ قطعاً طوالاً ويصنعون منها هذه العصي والسياط التي يقال انها مصنوعة من اذناب الفيلة وهي في الحقيقة من جلد هذا الحيوان

الافيال

وبعد مسير اربعة ايام وصلنا الى بركة ماء فنزلنا عليها للقيل ولمّا مالت الشمس الى المغيب اخذت بندقيتي وخرجت من المعسكر في طلب الصيد فوصلت الى مكان مرتفع وقفت عليهِ واخذت اجول ببصري لعلّي ارى صيداً في السهل امامي واذا رجل من الاهالي قد جاء اليَّ واخذ يشير بيدهِ الى غابة تبعد عني نحو خمسمائة متر فالتفتُّ واذا فيلان كبيران جداً يسيران الهوينا فلم اكد اصدق نظري لشدة الفرح فافهمت الرجل بالاشارة ان يسرع الى المعسكر ويخبر البكباشي بلدرى وبقيت واقفاً ارقب الفيلين حتى اختفيا وراء الشجر. ولم تكن الا بضع دقائق حتى جاء البكباشي مسرعاً ومعهُ المستر سيرس الجاويش الانكليزي فشيّعنا نحن الثلاثة الى الجهة التي سار فيها الفيلان فرأيناهما قد نزلا في غور يشربان

ويغتسلان وكانت الشمس قد غابت فاخذنا نزحف على بطوننا حتى صرنا على ثلاثين متراً منهما ولم يمكننا التقدم اكثر من ذلك لانهُ لم يبقَ شيءٌ بيننا وبينهما نستتر وراءهُ. ثم جلسنا نستريح واتفقنا انهُ اذا هجم الفيلان علينا لا نحاول ردهما بل يختفي كلٌّ منا في اي مكان يراهُ موافقاً. ولا سبيل للنجاة من الفيل اذا هجم الاَّ بهذه الطريقة لانهُ قصير البصر جداً لكنهُ قويّ الشم متى كان تحت الريح اما سيرهُ فاسرع من سير الانسان كثيراً. ولا يمكن ردهُ باطلاق الرصاص عليهِ مواجهة ما لم يصبهُ الرصاص في ركبتهِ ويصعب ذلك في مكان كثير العشب لان ركبة الفيل لا تعلو كثيراً عن الارض فيخفيها العشب. ثم افترقنا اكبر الفيلين وقال لي البكباشي لنصوّب بنادقنا نحن الثلاثة جاعلين غرضنا من الفيل بين صماخ اذنهِ وعينهِ واضرب انت اولاً لانك صاحب الصيد ونحن نتبعك قلت لا بل اضرب انت اولاً لانك اسدّ رماية مني وغايتنا قتل هذا الفيل فاتفقنا على ذلك واطلقنا الرصاص ثلاث دفعات اي ان كل واحد منا رماهُ بثلاث رصاصات فرفع الفيل خرطومهُ واخذ ينظر الى الجهة التي سمع الصوت منها ثم حوّل وجههُ وولّى هارباً لا يلوي على شيء ودخل احمة في الجانب الآخر من الخور واختفى فيها وتبعهُ الفيل الآخر. ثم سمعنا صوتاً عن شمالنا كصوت الابواق فالتفتنا واذا قطيع من الافيال يبلغ عددها نحو الثلاثين وهي رافعة خراطيمها فوق رؤوسها ومسرعة الى الغابة. وكان الظلام قد خيم فعدنا خائبين ولا ادري ايناَ كان اشدّنا غيظاً وقد توسلت الى البكباشي بلتوى ان نبقى هناك الى اليوم التالي ونقتفي اثر الفيل ونجهز عليهِ اذا كان لم يزل حيّاً فابى وقال ان بقاءنا هناك يؤخرنا عن الوصول الى المشرع فلا تصل المؤونة الى التونج في الوقت المعين قلت دعني ابقى وحدي قال انا المسؤول عن سلامتك ولا اقدر ان اسمح لك بالبقاء. ولم يكن البكباشي بلتوى اقل مني اسفاً لضياع هذا الفيل لكنهُ على شدة ولعهِ بالصيد كان يرى ان ايصال حمل واحد من المؤونة الى التونج اهم كثيراً من صيد عشرة افيال. وقد لقيت كثيرين من الضباط ذوي النشاط والهمة لكنني لم ارَ مثل البكباشي بلتوى في صدق خدمتهِ وشدة غيرتهِ على مصلحة الحكومة وتفانيه في قضاء الواجب الى ان مضى لسبيلهِ مع من مضى من رفقاء تلك الرحلة

ووصلنا بعد يومين الى بركة ماء نزلنا عليها وكان الحرّ شديداً فجلست في ظل شجرة على حافة الماء ثم جاء احمد كامل افندي وجلس معي ووضعنا امتعتنا هناك وبتنا فلما مضى هزيع من الليل جاء محمد افندي امين وايقظني وقال قم وانظر فقمت واذا فيلان هائلان في البركة امامنا لا يبعدان عنا اكثر من عشرين متراً. واراد امين افندي ان يوقظ كامل افندي

فقلت لهُ دعهُ نائماً لانهُ تعب كثيراً اليوم ووقفنا ننظر الى الفيلين بقدر ما يسمح لنا ظلام الليل وكانا يشربان . ثم اخذا يخوضان الماء كانهما يريدان الانصراف او التقدم الى جهتنا فخفت ان يمرّا من المكان الذي كان كامل افندي نائماً فيهِ فايقظتهُ واخذت بندقيتي وذهبت الى المكان الذي كان فيهِ البكباشي بلتوى فرأيتهُ واقفاً وبندقيتهُ في يدهِ فقلت لهُ ما رأيك قال ليس من الصواب ان نطلق الرصاص عليهما في هذا الظلام الدامس واخاف انا اذا فعلنا ذلك ودخل فيل منهما بين العساكر واختلط الحابل بالنابل ان يصيب العساكر بعضهم بعضاً او يعثر احد الفيلين بجندي نائم فيقتلهُ . فتركناهما وشأنهما وهما لا يباليان بلغط العساكر وكانوا قد استيقظوا من نومهم فشربا حتى ارتويا ثم انصرفا آمنين

وربما كان بعض الكلام في وصف الفيل الافريقي لا يخلو من فائدة في هذا المقام فلا يخفى ان الفيل نوعان هندي وافريقي واكثر الفيلة التي نراها في حدائق الحيوان هندية . والفرق بين الاثنين ان الهندي اصغر جثة واكثر ذكاء من الافريقي وهو اليَن عريكة واسهل انقياداً اما الافريقي فشرس جدًّا واصعب مراساً واكبر جثة يبلغ طول الكبير منهُ اثني عشرة قدماً عند كتفيهِ

ويختلف الافريقي عن الهندي ايضاً بكبر الاذنين وطول النابين وضخامتهما ففي المتحف البريطاني ناب فيل افريقي طولها عشر اقدام وعقدتان ووزنها ٢٢٦ ليبرة واظنها احدى النابين اللتين ذكرتهما في رسالة ماضية . وفيهِ ناب فيل هندي طولها ثماني اقدام وتسع عقد ووزنها ٩٠ ليبرة وهي اطول الانياب الهندية هذه اهم الفروق بين الفيلين الافريقي والهندي . وقد كان القدماء يذللون الفيل الافريقي ويقاتلون بهِ كما كان الهنود يقاتلون بالفيل الهندي فكان البطالسة يأتون بالافيال من شرق افريقية وقد قاتل بها القرطاجنيون في حروبهم المشهورة مع الرومانيين وآخر من حاول اذلال الفيل الافريقي اسمعيل باشا الخديوي الاسبق فانهُ ارسل فيلين من الافيال الهندية الى الاسمعيلية المعروفة الآن بفوندوكورو وذلك لتعليم الافيال الافريقية وتربيتها

ووصلنا الى مشرع الريك في الثامن من شهر فبراير ووصلت الباخرة التي تحمل البريد من ام درمان في اليوم نفسهِ فاخذت رسائلي وجلست في خيمتي اقرأها وكان في المحطة علمان مرفوعان دائماً وهما العلم العثماني والعلم الانكليزي فالتفتُّ واذا البكباشي بلتوى يخفضهما فسألت عن الخبر فقيل لي ان البريد جاء بنعي الملكة فكتوريا وكانت وفاتها في الثاني والعشرين من شهر يناير فلم نعلم بها الاَّ بعد مضي سبعة عشر يوماً الدكتور امين المعلوف